قيادة الأعمى

(الى روح صديقي الأغلى الراحل الجميل حسني الناشئ)

حنون مجيد ❖

لا أعرف كيف قادني حلمي إلى هذا الرجل الأعمى، الذي عرفتُ، فيما بعد، أنّه صديقي الذي مات منذ سنين، لأقودَه إلى الأرض، وهو على مبعدة أربعة أو خمسة طوابق عني.

البناء المرتفع، الذي يَشْخص فوقَه، أشبهُ بهيكلٍ قائمٍ في العراء، يجوب بين جنباته الفراغُ وهو وحيدٌ، يتلمّس بحذرٍ شائكٍ مواضعَ قدميْه، على طريق جانبي ضيّق يحفّ كالطوق، بالبناية من خارجها، ولا سبيل له إلى غيره لكي يَهْبط الأرضَ.

هو في الأعلى، وأنا في الأسفل، أنظر اليه بتوتّرٍ مشوبٍ بقلقٍ شديد، وأناديه موجّهًا إيّاه إلى حيث ينبغي له أن يتحرّكَ إلى الأمام، أو ينعطفَ باتجاه اليمين أو الشمال.

في نقطة كاد يهوي منها، وهو في سبيله المتعثّر إلى الأرض، هتفتُ به عاليًا: «قف!» فتوقّف كالحجر. لكنّه حين استدار نحوي، أرهف سمعَه مجدّدًا. قلتُ:

ـ أمامك حجرٌ عليكَ أن تتفاداه. فإنْ مِلْتَ إلى اليمين، وثمة لا سورَ يحميكَ أو يمنعك، هويْتَ وإنْ مِلْتَ إلى اليسار، حيث الجدار الذي يحاذيك، فقد يحصل العكس، إذ ربما تضطرب على ردّ فعلٍ غيرِ محسوب وتهوي كذلك. إرفعْ قدمَكَ اليسرى عاليًا وبصورة مناسبة

رفعتُ صوتي ثانيةً ثم علّقت.

ـ ولا تتحرّكْ حتى تتثبّتَ من موقعها، وتشبّثْ ما أمكنكَ بالجدار. عندئذ حَرِّكِ اليمنى. الحجر الذي أمامك عالٍ بعضَ الشيء، ووضعُه في هذا الطريق عبثٌ غيرُ طريف حرِّك جسدَك بتؤدة، ولا تَمِلْ نحو اليمين. إيّاك وناحية اليمين. كذلك لا تبالغْ في الميلان نحو اليسار إنّك في المركز الآن. وكن يقظًا في كلّ خطوة تخطوها.

بالرغم من تحذيراتي، لم يقدّر ارتفاعَ الحجر، فاصطدمتْ قدمُه اليسرى به ومال إلى اليمين. بيْد أنّه تدارك ذلك سريعًا، وسحب قدمَه، ثم رفعها بنسبةٍ أعلى. وحين تقدّم خطوةً، كرّر التجربةَ مع القدم الأُخرى.

خطا قليلاً، يقيّد الحذرُ والخوفُ قدميْه. لم يكن قريبًا لأعرفَ مقدارَ انكسار نفسه أو سعادته حين وقفَ الحجرُ الثقيلُ أمامه واجتازه من بعد.

على أيّ حال أصبح جسدُه الآن راسخًا؛ يدُه اليسرى تتشبّث بالجدار، واليمنى تطوّح في الفضاء متناغمةً مع حركة جسده الدائبة نحو الأرض.

تساءلتُ عن سرّ وجوده هناك، ولماذا لم يَخْتر السُّلّم الداخلي الذي لا بدّ من وجوده في مكانٍ ما. ولو كنتُ قريبًا منه، أو أعرفُ موقعَ السُّلم، لدللتُه عليه.

اعترضَتْ طريقَه هذه المرة ثلاثُ فتياتٍ صغيرات، لا يكاد يبين منهنّ سوى أطيافِ أجسادهنّ، يلعبن عارياتٍ على هذا الطوق الحرّ الذي يلتفّ على جسد البناية لغرضٍ غيرِ معلوم.

الفتيات الصغيرات يلعبن جالساتٍ على أرض الطوق، غيرَ عابئات برجُلٍ قادمٍ نحوهنّ في سيرٍ وئيد. أهتف به أن ينتبه؛ فأيُّ عثرةٍ بواحدةٍ منهنّ تودي بحياته. وهو يستمع إليّ ويؤشّر بيده أنْ إنّي أسمع وأتتبّع الارشادات، حين وقف وبدأ يتسمّع إلى لغو الفتيات وصخبهنّ. وتابع سيرَه بعد أن صحتُ بهنّ أنْ تنحّيْنَ عن طريق الرجل. وكادت إحداهنّ تهوي حين ترنّحتْ قليلاً قبل أن تستيقظ على خطورة طيشها، وكانت تلاحق دميةً أو شيئًا من هذا القبيل ألقت به إليها صديقتُها.

❖ ـ من كتّاب العراق

هتفتُ ثانيًا: «مِلْ نحو الشمال بذكاء، ولا تحتكّ بالجدار سِرْ على مهلك؛ فالفتيات العاريات اختفيْن » وفعلاً اختفت الفتيات، بل لم يعد لهنّ من أثر في القصر.

نقلتُ نظري لحظةً في أرجاء القصر الواسعة ألفيتُ جماعاتٍ منفردةً من الناس يجوبون المكان ويتوغّلون في الغرف والدهاليز والمجازات الكثيرة، بحثًا عن أشياء أجهلها والحقيقة أنّهم كانوا يروحون ويجيئون من دون أن تتحدّد غاياتُهم لرجُلٍ له وضعٌ مثل وضعي بل لعلّ الغريب في الأمر أنّ القصر هذا، الواقعَ في مكانٍ ليس بالبعيد عني وليس بالممنوع عليّ، كان أبعدَ الأماكن عن مراودة نفسي. لم يلفت نظري الخرابُ الواقعُ عليه، ولا هذه الجماعاتُ التي تجول فيه، إنما كلُّ ما شدّ نظري إليه هو وضعُ الرجل الغريب، وكيف حلّ هناك دون سواه، والطريقةُ التي عليّ أن أتبعها لأنقذَه من هاويةٍ سيُشْرف عليها لو تركتُه

إنّ رجلاً أعمى هو أمانةٌ بيد الرجل المبصر هكذا أرى، ولذلك فإنّ دوري هنا سيكون جميلاً لو هبطتُ به الأرضَ بسلام؛ فعساه أن يشكرني شكرًا أجمل، ويهنّئني على أمانتي وحسنَ سريرتي تجاه الناس، وهي الفضيلةُ الوحيدةُ التي ظلت تلازمني منذ ما يقرب الستين عامًا. بل ربما سأُمسك بيده، وأعْبر به الشارعَ إلى تلك الكازينو القائمة وسط مروج تَضْرب عليها الشمسُ من جوانبها فتُحيلها قطعةَ فضةٍ تعوم في اخضرار عارم ربما سأسمع منه حديثًا جميلاً، شكوى ما، اعترافًا بحبّ مضى، كشفًا لحالةِ عماه، ثم سِرَّ طريقِه إلى أعلى القصر وعودته منه. ولكي أكون دقيقًا فأنا أحبّ الحديثَ مع مثل هؤلاء، وتُعْجبني قدراتُهم العجيبةُ على حفظ الأصوات ومعرفة أشخاصها، وكم كنتُ حريصًا على أن يكون لي أصدقاء كثر منهم. وغالبًا ما كنت أفكّر أنّ هذا يشكّل امتيازًا من امتيازات الرفقة الخالصة وبراءةِ النفس، فضلاً عمّا يؤكّده من نكرانِ ذاتٍ تقوم على تقديمِ العون وغيرِ ذلك من إغراءاتٍ أُخَر تلوِّن صورتَك في بصائر هؤلاء

ـ إحذرْ توخَّ الدقةَ في الحركة انعطف انعطافةً مرنة؛ فالقصرُ دائري الشكل إنّك تهبط بصورة سليمة، سليمة جدّاً. ومع ذلك فإنّي أشعر أنّ الهبوط، لمن في مثل حالك، أصعبُ من الصعود؛ فقد يأخذ بك ثقلُ جسدك المنحدر إلى ميلانٍ خطر، ينبغي عليك أن تنتبه دائمًا إليه. هل تراك تسمعني جيِّدًا؟ توقَّفِ الآن ولا تَمْضِ قُدُمًا؛ فأمامَك عثرةٌ جديدة. مِلْ بجسدك ناحيةَ الشمال بصورة متوازنة، وقدِّمْ قدمَك اليسرى كما فعلتَ في المرة السابقة، وإيّاك والخطأ؛ فالحافة قريبة منك هنا حين تستقرّ، ارفعْ قدمَك اليمنى نعم. هكذا أنتَ الآن في وضعٍ سليم. حسنًا فعلتَ. أوه! إنّ على الانسان ألاّ يطمئنّ كثيرًا ما دام هو على قيد الحياة

مفارقة، أليس كذلك؟ لو تسمعني جيِّدًا لضحكتَ، أو لقلتَ شيئًا طريفًا فأنا أعرف أنّ أمثالك ينطوون على أشياء مثيرة، ليس أقلَّها حذلقةُ اللسان، وصراحةُ الجنان، والتحرُّرُ من المحذور في بعض المزاح الخفيف. نعم، تستطيع أن تجلس الآن، أن تولي ظهرَك الجدارَ، وتأخذَ أنفاسًا عميقة، وتمدّ ساقيْك على جانبيْ هذه العثرة، فلا تأخذك هذه الريحُ. أنتَ تدرك أكثرَ منّي، وأنتَ في علاك، شدةَ الريح التي بدأتْ تهبّ الآن. والإنسانُ فوق أخفُّ منه تحت. أنت تعرف. وكلُّ شيء في الحياة كما يبدو يَخْضع لجاذبيةٍ ما؛ وهذا منطقٌ مطلق، وإنْ لم لا تحدِّده معادلةٌ واحدة. وبصورةٍ ما، فإنّ الإنسان المعلَّق في الاعلى أجملُ منه في الأسفل، ولا أقول أرفع، ويثير المتعةَ والخيال. وإنّكَ لو أفردتَ ذراعيْكَ، وخلفْكَ السماءُ المبهجة، لكنتَ نسرًا مجيدًا وإنّني، إنْ كنت أراك كذلك، فقد تراني من قمتك، لو فَتَحَ اللهُ عليك بنعمةِ البصر، أصغرَ من طفلٍ يدبّ على الأرض.

أراكَ نهضتَ إذًا، أيُّ مقدام أنتَ لتواجه العاصفة! سِرْ. ليس عليك إلاّ أن تقتحم مصيرَك بشجاعتك، وإلاّ فمن يَضْمن هدوءَ العاصفة، ومَنْ يعاهد مَنْ على استتباب الأنواء؟ ولو كنتُ معكَ، أنا الذي أقودُكَ، لربما كنتُ، وأنا أرى عمقَ الهاوية، أضعفَ منكَ... أو لسقطتُ.

رفع يدَه، ولوّح بها تحيةً لي ـ يدَه اليمنى التي بَدَتْ لعيني مثلَ جنحِ طائرٍ عَلِقَ بشبكةِ صيّاد.

الريح قوية، تَضرب جسدَه، وتحاول أن تنتزع عنه ملابسَه. لكنّه يتقدَّم، وها هو يتجاوز الطابقَ الأعلى في التفافٍ مستمرّ، وأنا أحاكيه في الالتفاف، حركةً بحركة، منقّلاً نظري معه ومعي، إلى الأعلى تارةً وإلى الأسفل أخرى، حريصًا على أن لا أَغْفل عنه.

وبالرغم من العوائق الكثيرة التي وجدتُها في طريقي، مثل كتل أحجارٍ ضخمةٍ تساقطتْ من أعالي طوابق القصر وتناثرتْ على الطريق الملتفة حوله، وأسلاكٍ شائكةٍ مرميةٍ كتلاً هنا وممتدةً على هيئة موانع هناك، فقد واصلتُ الزحفَ معه في حميّة بالغة، مقدِّرًا صعوبةَ طريقه التي هي غيرُ صعوبة طريقي. لقد ارتهنتُ إلى هذا الرجل ارتهانًا مصيريّاً، وكنتُ أفكّر

هذا الرجل، الذي هو كالسائر على حبلٍ، كلاهما على زللٍ بسيطٍ معرّض للموت، ماذا أفعل لو سقط ؟ لو زلّتْ به قدمٌ وهوى؟ هل أستطيع أن أتلقّفه كما تُتلقّف الكُرة؟ هل يمكنني أن أحميه بوسيلةٍ ما؟

عند بداية الطابق التالي صار صوتي جليّاً لا يحتاج إلى جهد كبير ليسمعه، عندما خاطبتُه:

ـ ها أنّك بدأتَ تميل في سيرك. هل ألمّ بكَ شيءٌ ما؟

توقّف، وبدا عليه أنّه يستمع مليّاً لأصداء صوتي، كما لو أنّه يسمعه أولَ مرة. أمال وجهَه ناحيتي، غيرَ مبالٍ بالخطر المحدق به. صحتُ عاليًا:

ـ انتبهْ، إنّك تكاد تطير. عد إلى الوراء، وليكن ظهرُكَ إلى الجدار، واسمعْ: ها أنتَ دخلتَ مرحلةً جديدةً قطعتَ فيها طابقًا كاملاً في دورانٍ كنتُ معكَ فيه، فلا تغامرْ. تعلّقْ بموقعك، وإذا شعرتَ بالراحة وصفاء الرأس، استمرّ»

قال: «إنّني أسمع صوتك جيِّدًا الآن.»

قلت: «ما لذي جاء بك إلى هذا المكان؟»

قال: «أتسألني وأنتَ المبصر؟»

قلت: «حسن. لك ما تريد أن تقول، ولكنّ أمرك غريب.»

قال. «أيّ غرابة في الأمر؟»

قلت: «أن تكون وحدك هنا، فوق هذا القصر، وفي مثل هذه الأيام.»

قال: «جئت أطوف.»

«تطوف حول ماذا؟» سألتُ.

ردّ: «أطوف حول حلمك، بل لعلّي جئتُ أطوف فيه. لذا سأغيِّر موازينَ الاحلام، وأمنح حلمَكَ طاقةً على تفاصيل أكثر إنّ صوتك قريب منِّي بل يثيرني.»

قلت: «تقدّمْ قليلاً، لكي أتبيّن وجهَكَ. ملامحُك هي الأخرى قريبة منِّي، ولكنَّها مختلطة بظلالٍ لا تشفّ عنها سريعًا. أمهلني لحظات وسأعرفك.»

ـ وأنا كذلك لك صوت غنائي رخيم، هل جرَّبت الغناء من قبل؟

ـ لصديقٍ لي، له هيئتُك نفسُها، صوتٌ جميلٌ كان يغنّيني به ليل نهار، وكنتُ أطربُ له ويشيع السعادةَ في نفسي، فعساه أن يكون أنتَ، أو فعساكَ أن تكون هو، لا فرق.

ـ وعسى أن تكون هو صديقي ذاك الذي كان يردِّد الأغاني معي ويحبّ صوتي بجنون، فأتمادى في الغناء له، له وحده في الشوارع والساحات والأزقّة. صديقي ذاك صديقٌ جميل، وأنا أحبّه حبّاً عظيمًا.

ـ وأنا كذلك، ولو تعرف كيف نشأتْ صداقتُنا وكيف تكوّنتْ، وما هي عليه ملامحُها الفريدة والنادرة. ولو أَصَخْتَ السمعَ جيّدًا لأخبرتُكَ شيئًا عن قصة وفائه لي.

ـ تكلَّمْ، قل شيئًا ممتعًا، فأنا الآن في استراحة. تكلّمْ ولا يغبْ عن ذهنك أنّني حرّ. حرّ تمامًا.

ـ إذًا استمعْ. كنّا أحببنا فتاةً هي الأجمل بين فتيات الزقاق، اسمُها سميرة. ثم إذا كاد أحدُنا يموت قبل الآخر، وكنّا شاهدنا فيلمًا هنديًا اسمُه «سنكام،» ظهر في فترة بعيدة تحاكي قصتُه قصةَ حبّنا، أقسَمَ على التخلّي عنها وانقطع عن العلاقة بها وتركها لي. وأذكر أنّنا حين خرجنا ذاهليْن من الفيلم ذاك، فقصةٌ مثلُ قصته لا تصدَّق ولا تحتمل، صادفْنا صديقًا له مثقفًا اسمُه يوسف حسن أو يوسف حسين. سألناه عن غرابة موضوع الفيلم، فقال «لا تَعْجبا، فالأمم الكبيرة تَزْخر بمثل هذه المعطيات، والهندُ أمة عظيمة. أن يتخلّى صديقٌ لصديقه عن حبيبة مشتركة لأمرٌ يسير »

رفع يديه عاليًا. كاد يحلّق في الفضاء. قال: «شيء غريب! لعن اللهُ العمى الذي جاءني آخرَ أيامي، فهذه قصتنا، أنا حسني الناشئ وصديقٍ أثيرٍ على نفسي لعلّه أنت، كان يدعى باسميْن يَعْرفه ناسٌ بهذا ويعرفه آخرون بذاك.» قلت، وقد تاقت روحي إلى لقياه «إذًا سأنتظرك حتى تهبط، وسأقودُكَ إلى تلك الكازينو التي لا يَعْرف المرءُ فيها مللاً هناك سوف يستمع كلٌّ منّا إلى الآخر. إنْ كان ذلك يسرُّكَ فلسوف أنتظرك، وإلاّ فأنت الآن في مأمن؛ فلقد هدأت الريحُ وبدأتَ تعرف كيف تخطو وكيف تلتفّ، متى تسير ومتى تتوقّف، ولربما إنْ هبطتَ تفتّحتْ عيناكَ »

ـ حسن، انتظرْ، ولا تبرحْ مكانَك.

قال ذلك، وجعل يسير هادئًا مطمئنًا، ثم أردف.

ـ لو تعرف كم بي من اللهفة لأجلس في كازينو وأستمع إلى حديثِ صديق. لقد غاب عنّي الأصدقاءُ، للأسف، حتى هذا الذي أظنُّه أنتَ، نسيتُه هناك، وأظنّه نسيني هو الآخر؛ فكلٌّ مشغولٌ بعالمه الخاص... عدا ما يتعلّق ببعض القضايا العظيمة التي تدعو الميتَ لأن يحضرَ ويجوسَ في حلم صديقه الحيّ، الذي هو حلمُه في الوقت عينه. وهذا ما يحصل الآن بيني وبينك، الأمرُ الذي يؤكّد أنّكَ أنتَ صديقي الجميل ذاك صاحبُ الاسميْن اللذيْن يجمعان بين كنايتَيِ الحمد والحنان، وكانت لي معه حياةٌ حافلةٌ بالمعنى. الآن يحقّ لي أن أسرع إليك.

هتفتُ به بأقصى ما أستطيع إطلاقَه من صوت:

ـ حذار، حذار، يا صديقي، حذار! الآن تمّ لي الكشفُ؛ فأنت صديقي الميتُ حسني الناشئ الذي ما أزال احتفظ بحذائه الأسود الجديد الذي أهدتني إياه زوجُكَ الوفيةُ بعد أن متَّ. أنا صديقُك، صديقُك الخؤون الذي يقودك اللحظةَ سالمًا إلى الأرض، بعد أن ترك لك الحبلَ على الغارب لتموت في السماء.

بغداد